مواضع المدن عند العرب في صدر الاسلام

الدكتور طاهر مظفر العميد
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

وجد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ان الجيوش الاسلامية المرسلة الى العراق ومصر وهي توغل في الفتوحات وتحرير الاراضي العربية ، بحاجة الى مراكز عسكرية ستراتيجية ، تتجمع فيها ، وتثب فيها الى مناطق ابعد واراضي اوسع ، فأمر قادة جيوشه في العراق ومصر تأسيس المدن الاسلامية الثلاث البصرة والكوفة والفسطاط .

ولما كانت هذه المدن هي المدن الكبرى المبكرة الاولى التي مصرها المسلمون ، فأن لها مكانة خاصة لدى علماء الأثار والمتخصصين بالعمارة وتخطيط المدن بالاضافة الى مدينة القيروان التي بنيت في منتصف القرن الهجري الاول .

وبناء على هذه المكانة التي تحظى بها هذه المدن ، فأن غرض هذا البحث الوصول الى الحقائق التأريخية الثابتة ، مجردة من التعصب ، بعيدة عن الهوى ، سبيله الاعتماد على النصوص التأريخية المتوفرة ، وعلى نتائج التنقيبات الاثرية .

نستهل البحث في التعرف على افكار علماء الآثار الغربيين المختصين في الآثار ، بالتراث العماري والخططي للعرب في الفترة التي سبقت الاسلام .

كتبت عالمة الآثار البريطانية السيدة « جروترودبل » : « كان الغزاة المحمديون مجرد بدو رحل ، سكنهم السوداء ، وقبرهم رمال الصحراء ، وكان سكان الواحات النادرة في وسط البلاد العربية مثل ماهم عليه اليوم ،

ويقنعون بنوع قبيح من العمارة من اللبن وجذوع النخل ، لا يزينه أي نقش معتقد من وحي الخيال ، ولا يصلح الا لابسط الحاجات »[1] .

ويقول الأب لافانس : « يبدو ان أغنى اصحاب الاموال من قريش ، وعلى الاقل في الفترة السابقة على الاسلام ، كانوا يعيشون في مساكن فقيرة، ويتحدث الشعراء البدويون عن اتساع وارتفاع قدور اصحاب المكيين ، ولكن لا يجد المرء قط من يذكر ترف مساكنهم ولا حتى مهابة منظرهم ، ولا ينطقون أبدا كلمة قصر ، ولم تكن بمكة عمارة ، ولما كان الامر يحتاج بين حين وآخر الى تجديد عمار المبنى الصغير للكعبة ، فأن الاهالي كانوا يضطرون الى الالتجاء الى عمال اجانب »[2] .

وكتب ريتشموند بأن : « مدى الامكانيات المعمارية الاسلامية قبل قيام العرب بفتوحاتهم كانت لا تكاد تكفي الا لتعبر عن حاجاتهم بطريقة غشيمة الى اقصى درجة »[3] .

وكتب البروفسور كريزويل ، عالم الآثار البريطاني المتخصص في العمارة الاسلامية : « ولم يكن البدوي الاصيل ليتقبل راضيا ان ينام بين اربعة جدران ويعلو سقف فوق رأسه اذ يشعر كما ولو كان قد وقع في فخ ، ويمكن القول ، بأن البدوي منهم كان يعاني من رعب متأصل موروث

---

(١) Bell, Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford, 1914, P. VII; Creswell, Early Muslim Architecture, Vol. 1. P. 7.

اورد هذه الفقرة الدكتور فريد شافعي في مؤلفه الموسوم « العمارة العربية في مصر لاسلامية صفحة ٣٩ .

(٢) Lammense, Taif a, la Veille de l' hegire Mélanges. de la université st. Joseph, Beyrouth, VIII, P. 183; Creswell, Early Muslim Architecture, Vol. 1. PP. 40-41.

(٣) Richmond; Moslem Architecture, P. 9.

من الاماكن المقفلة ، فمن الواضح اذن ان بلاد العرب كانت تحتوي على فراغ معماري يكاد يكون تاما »(٤)

والواقع فأننا لا نستطيع ان نحكم على ما كتبه هؤلاء العلماء ما لم نسترشد بالبحوث والنتائج التي اشار اليها الكتاب الذين عنوا عناية عظيمة، في القرنين الماضي والحاضر ،بالأثار العربية في مناطق عاش فيها العرب وتركوا آثارا من حضاراتهم .

واذا ما عرجنا الى الجزيرة العربية ، نرى ان العرب أقاموا فيها قبل الاسلام مدنا كثيرة لازالت آثار بعضها ماثلة الى يومنا هذا ، غير ان القسم الاكبر منها قد اندثر ، وعفى عليه الزمن ، ولم يبق منها سوى بعض الاشارات والاخبار متناثرة في المراجع العربية وفي دواوين الشعر .

وقد جمع الدكتور ناجي معروف اسماء كثيرة لهذه المدن التي شيدت قبل الاسلام وبعده في اقاليم مختلفة من الجزيرة العربية ، وردت اسماؤها في الكتب والمؤلفات التي تبحث في « البلدان » و « المعاجم » و « والتاريخ » .

ففي الفترة التي سبقت الاسلام ، اقام العرب مدنا في الحجاز منها مكة المكرمة ، يثرب ، الطائف ، وادى القرى ، ينبع ، الجحفة ، جبلة ، تيماء ، مدين ، تبوك ، الحجر جده ودّان ، فَيْد ، الأبواء ، آمج ، بزواء ، دُوْمَة الجندل ، الديدان ،السقيا ، صفينة ، منى ، المجاز ، مَجَنّة ، قرح خيبر ، حصن العشيرة ، العيص ، نطاة ، البحار ، حباشة ، الحديثة ، القاحلة ، القرعاء ، قرن ، الجار .

وشيدوا في اليمن مدنا نذكر منها ؛ صنعاء ، ظفار ، ضروان ، ميرباط ،

---

(٤) Creswell, Early Muslim Architecture, Vol. 1, PP. 40-41.

هذه المقتطفات اوردها الدكتور فريد شافعي في كتابه « العمارة العربية في مصر الاسلامية » صفحات ٣٩ ـ ٤٠

نجران ، جُرش جديله ، تبالة ، بينون ، عدن ، صحار ، جون ، جيش ، سبأ ، ناعط الكسر ،إب ، ذو أشرف ، بِرْك ، الغماد ، الحيق ، الحضور .

وفي اليمامة شيدوا : اليمامة ، حِجر ، صعفوق ، الوشم ، القرية ، مرآة، إباض ، أحسن ، أكمة ، بلاد ، نطاع ، الجدار ، الحاتمية ، حائل ، قرقرى ، الباقرة ، الحديقة الثُقب ، الهدّار ، منفوحة .

و في البحرين أقاموا : هَجَر ، القطيف ، الاحساء ، المشَقَر ، حوارين[٥] .

واذا اردنا التعرف على نشاط العرب في مجال بناء المدن ففي وسعنا ان نستعين بنتائج الرحلات العلمية التي قام بها بعض العلماء في حوالي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وما بعده ، اذ كان لهذه النتائج بعض الفضل في إماطة اللثام عن اوجه الحضارة العربية في اليمن ، فأصبح معروفا لكل متخصص في الدراسات الشرقية ، بعد ان تيسر للعلماء نتائج بحوثهم ، ان الجزيرة العربية قد شهدت في اطرافها الجنوبية الغربية حضارة رائعة لا يمكن بأي حال من الاحوال انكارها والتغافل عنها .

ففي عام ١٨٤٣ جمع الصيدلي الفرنسي آرنو Arnaud [٦]،

---

(٥) المدن التي ذكرت اعلاه في المتن وردت في الملاحق الاولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة في كتاب عروبة المدن الاسلامية ، للدكتور ناجي معروف ، الصفحات ٤٣ ـ ٧٦ .

(٦) كان جوزيف توماس آرنو Joseph Thomas Arnaud شاب صيدلي في خدمة حاكم تركي اوفدته حكومته الفرنسية في خدمة علمية خاصة الى اليمن زار خلالها مأرب في عام ١٨٤٣ وفي طريقه اليها زار خرائب مدينة صرواح وزار سد مأرب ونقل كثيرا من النقوش السبأية التي رآها ، فكانت اولى نقوش هامة تصل الى ايدي العلماء ، فقد نشر هذه النقوش ومذكرات آرنو القنصل الفرنسي في جدة المدعو فرسنيل Fresnel في عام ١٨٤٥ .

نقوشا عديدة في سبأ ، وقام بعمل رسم تخطيطي لمدينة مأرب القديمة وذكر انها كانت مستديرة الشكل وان بها ثمانية أبواب[٧] .

وفي عام ١٨٦٩ إرتأت اكاديمية الفنون الجميلة في باريس

Académie Inscription at Belles Lettres

ارسال جوزيف هالفي J. Halvey الفرنسي في بعثة الى بلاد اليمن لجمع بعض النقوش اليمنية لكتاب عزمت الاكاديمية اخراجه بعد اهتمام فرنسا بالابحاث العربية الجنوبية ويدعي هذا الكتاب

. Corpus Inscription um Semiticarum

وقد وصل هالفي الى اليمن عن طريق القدس ، وانتقل في جهات اليمن ثم عاد الى بلاده ونشر مؤلفه عام ١٨٧٢ الذي يتضمن مشاهداته لأثار اليمن بالاضافة الى النقوش .

وفي عام ١٨٨٢ قام كلازر Glazer بأربع رحلات فيما بين سني ١٨٨٢ – ١٨٩٢ زار فيها سبأ وظفار وجهات اخرى في داخلية اليمن ، ولم ينشر وصفه الكامل لرحلته الثالثة في عام ١٨٨٨ وهي التي تمكن فيها من الوصول الى مأرب ، وانما قام بنشره بعد وفاته في مايو سنة ١٩٠٨ كل من موللر ورودو كاناكيس تحت عنوان Eduard Glazers Reise nach Marib.

وفي النصف الاول من هذا القرن قام لفيف من الخبراء والعلماء العرب برحلات الى اليمن ، استفدنا كثيرا من ابحاثهم التي كشفت للعالم الكثير من معالم حضارة اليمن المجهولة .

ففي عام ١٩٣٦ زار اليمن نزيه مؤيد العظم ، واصدر عقب زيارته كتابا سماه « رحلة في بلاد العرب السعيدة » في جزئين[٨] كما قامت في عام ١٩٣٦

---

(٧) Journal Asiatique. Série, VII, Vol. 11.

(٨) طبع في القاهرة عام ١٩٣٨

بعثة الجامعة المصرية بزيارة اليمن برئاسة الدكتور سليمان حزين ، كانت مهمتها دراسة المنطقة من نواحيها الجغرافية والزراعية والجيولوجية[٩] .

وفي عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ اوفدت جامعة فؤاد الاول آنذاك الاستاذ محمد توفيق الى اليمن[١٠] ، وقد تسنى له زيارة منطقة الجوف في هاتين السنتين ، وقال عن رحلته تلك : « وتمكنت من دراسة سطح هذه المنطقة وخرائبها دراسة جديدة ومستفيضة الى حد ما ، واستعنت على استكمال هذه الدراسة بالصور الفوتوغرافية التي تظهر لاول مرة عن الجوف وما فيه من آثار ونقوش وزخارف الى غير ذلك »[١١] .

وفي عام ١٩٤٧ قام الدكتور احمد فخري برحلة الى اليمن زار خلالها مناطق صرواح وجميع مراكز الحضارة المعينية في الجوف وسبأ ، وقد نشر نتائج زيارته هذه في بضع مقالات علمية ثم جمعها في كتاب اسماه

An Archaeological Journey to Yemen [١٢]

ومع هذا فأن الرحلات المتعددة الى اليمن لم تفدنا كثيرا في التعرف على تخطيط المدن لدى عرب اليمن آنذاك بصورة تفصيلية ودقيقة اذ المعروف ان غرض الرحلات السابقة التي قام بها المستشرقون في القرن الماضي كان من اجل الحصول على اكبر عدد ممكن من النقوش العربية الجنوبية ، دون الاهتمام

---

(٩) وقد نشر الدكتور سليمان حزين بعض ملاحظاته في مجلة
Nature, Vol. CXI, P. 513. 1937.

(١٠) كان الفرض من هذا الايعاد هو لدراسة الجراد الرحال والكشف عن مناطق توالده وتكاثره وقد ساهمت جامعة فؤاد الاول انذاك مع المركز العام لابحاث مقاومة الجراد بلندن .

(١١) آثار معين ، محمد توفيق ، صفحة ٢ .

(١٢) يقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء اقتصر ثانيهما على النقوش التي فحصها وقد طبع بالقاهرة عام ١٩٥٢ .

كثيرا بالعمائر وخطط المدن الا ما يأتي عرضا في وصفهم لما يشاهدونه في طريق تجوالهم .

وتفيدنا الصور الفوتوغرافية التي ارفقها الاستاذ محمد توفيق ضمن بحثه عن آثار معين في التعريف على عظمة العمائر التي تمثلها الآثار والاطلال والاوابد الباقية كما تشير هذه الاطلال الى ان مدينة معين (كانت مدينة مسورة بسور عال عظيم تهدم اكثره ، ولم يبق منه الا ارتفاع جزء بسيط منه عند الباب الغربي وهو نحو مترين ونصف متر ، وجزء آخر عند الباب الشرقي وهذا باقٍ على حاله الاصلي ويبلغ ارتفاعه نحو خمسة عشر مترا ولا تزال ترى به فتحات المزاغل لتصويب السهام والمراقبة »[١٣] .

واذا استعنا بما اورده المؤرخون والرحالة والجغرافيون المسلمون في وصف بعض المدن العربية نلاحظ ان الجغرافي ياقوت الحموي يشير الى مدينة صنعاء بقوله : «وليس بجميع اليمن اكبر ولا اكبر مرافق واهلاً من صنعاء»[١٤] . وقال عنها ايضاً بأنه كانت لها « تسعة أبواب ولا يدخلها غريب الا بأذن » [١٥] ووصفها الهمداني بأنها « احدى جنان الارض عند كافة الناس » [١٦] .

واذا ما عرجنا شمال الجزيرة العربية ، فهناك الحجر التي تقع الى الجنوب من دومة الجندل ، وهي كما يقول ياقوت الحموي تقع بوادي القرى بين المدينة والشام[١٧] .

وفي العراق نشاهد مدينة الحضر التي تنسب آخر الابحاث الاثرية بناءها الى

---

(١٣) محمد توفيق ، آثار معين ، صفحات ٤ ـ ٥ .

(١٤) ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الثالث صفحة ٤٢١

(١٥) نفس المصدر ، صفحة ٤٢٢ .

(١٦) الاكليل ، صفحة ١٩ .

(١٧) ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٠٨ .

القبائل العربية التي عاشت في الجزيرة بشمال العراق [١٨] .وتعتبر هذه المدينة بحق نموجاً لفن العمارة العسكرية ، وعرفت كمركز هام خلال القسم الاول من القرن الثاني الميلادي . وقد قاومت حملات الامبراطور تراجان سنة ١١٦ م والامبراطور سيفروس عام ١٩٨ م ، وكان يحيط المدينة اسوار قوية منيعة تضم داخلها معبد الشمس الذي كشف عنه اخيرا ، وقد حطمت الحضر عام ٣٦٣ للميلاد عندما قضى عليها الرومان ، ويمكن القول ان ازهى عصورها ينحصر بين سني ١٠٠ - ٣٠٠ [١٩]

وقبل ان ندخل في تفاصيل تراث العرب الخططي والمعماري في العصر الاسلامي ، نرى من الواجب مناقشة الاراء التي بسطها علماء الآثار والمستشرقين الغربيين عن عمارة العرب في الفترة السابقة للاسلام حتى تتوضح الصورة أمام أعيننا ، وتكتمل ملامحها قبل ان نسير الى مناقشة المرحلة التالية لهذه الفترة .

ولا بأس ان نستعين في مناقشة آراء السيدة بل والاب لامانس والبروفسور كريزويل بنصوص تأريخية موثوقة ، وفقرات كتبها متخصص في الهندسة المعمارية والآثار .

فلقد كتبت السيدة بل بأن العرب « يقنعون بنوع قبيح من العمارة من اللبن وجذوع النخل » ذكرت ذلك اثناء حديثها عن قصر الاخيضر وقد اشرنا في صدر هذا البحث الى ذلك ...

والظاهر لنا من طريقة تناول اولئك العلماء لمناقشة عمارة العرب في شبه الجزيرة ان تعريف لفظ « العمارة » نفسه ليس واضحا في اذهانهم ، ذلك انه يكاد ينحصر مفهومها عندهم بأن العمارة ما هي الا تفاصيل وزخارف واناقة

---

(١٨) كان الحضريون يسمون بأسماء عربية ، وقائمة اسماء ملوكهم تشير الى ذلك ايضا ومن ملوكهم « عبد سميا » الذى كان يلقب ايضا برلمك العرب انظر كتاب الحضر ، فؤاد سفر ، صفحة ٣٢ .

(١٩) فؤاد سفر ، الحضر ، صفحات ٣٢ - ٣٤ .

البناء وعظمته ، وهو فهم خاطىء الى حد كبير . ذلك لان المسلم به ومن المتفق عليه في جميع الاوساط المعمارية العلمية في العالم كله بغير استثناء ان جوهر العمارة يتمثل اولا وقبل كل شيء في التخطيط العام للمبنى وفي توزيع وحداته الرئيسية التي يتكون منها ذلك التخطيط ، اما التفاصيل والعناصر والزخارف فهي بمثابة المظهر الخارجي الذي ينعكس عليه تفاوت درجات الاناقة والثراء ... ويمكن تلخيص تعريف العمارة في ان العمارة هي نتيجة كل محاولة قام بها الانسان ، وهدف بها الى ان يوفر لنفسه في معيشته ثلاثة مطالب كلها او بعضها وهي : (أ) الراحة (ب) الا من (حـ) الجمال ، وسواء كانت نتيجة تلك المحاولات ناجحة او فاشلة ... ويؤيد ان جميع المراجع التي وضعت عن تأريخ العمارة تبدأ دائما بعمارة عصور ما قبل التأريخ وعمارة الاقوام البدائية اذا ما كان لها مخلفات باقية (٢٠) .

ولعل انتقال الآب لامانس من مناقشة عمارة العرب وتخطيط مدنهم ، وتفاصيل البناء الى الخوض في مهابة منظر العرب التي يستهزأ بها ، فأن ذلك لا يرتقى الى البحث التأريخي والآثاري بشيء ، ويصبح نوعا من التهجم الذي لا نجد اي مبرر له سوى الحقد الاسود الذي يملأ صدر هذا المستشرق الحاقد على العرب . ولابأس ان نشير هنا الى فقرة تتعلق فيما كتب عن تجديد عمارة الكعبة ، وقد اشرنا اليها في صدر هذا البحث ، فقد كتب : « ولما كان الامر يحتاج بين حين وآخر الى تجديد عمار المبنى الصغير للكعبة فأن الاهالي كانوا يضطرون الى الالتجاء الى عمال اجانب »

ونظرا لاهمية ما يقول لامانس في جملته السابقة ، وخطورة ما بنى عليها هو وغيره من مستشرقين ، من احكام اثرية وتأريخية ، فاننا سوف نقف عند هذه النقطة قليلا ، مناقشين رأيه ، معتمدين على نفس المراجع التي اعتمد على رواية منها ، ثم نرى بعد ذلك ، أهمية افكاره وقوة حجمها .

---

(٢٠) فريد شافعي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، الصفحات ٤٥ ـ ٤٦ .

اعتمد الآب لامانس في حكمه على رواية اوردها الازرقي التي تشير الى ورود اسم « باقوم » الرومي اثناء تجديد قريش للكعبة ، فأطلق لامانس حكمه بأستعانة العرب على جميع تجديد الكعبة بالاجانب .

تشير رواية الازرقي بأن الكعبة بنيت عشر مرات[٢١] ، فقد رفع سيدنا ابراهيم (عليه السلام) قواعد البيت الحرام مع ولده اسماعيل (عليه السلام) في فضاء من ارض مكة ليس فيه بناء غيره ، وقد بناها بالحجارة[٢٢] ، الا ان الكعبة المشرفة قد تصدعت بعد بناء ابراهيم (عليه السلام) ، فبنيت مجددا على يد قبيلة جرهم[٢٣] ، وقصي بن كلاب [٢٤] ، وعبد المطلب[٢٥] ، ثم بناء قريش لها .

وقد اورد المؤرخ الازرقي خبر بناء قبيلة قريش للكعبة في عدة روايات مفصلة[٢٦] ، نورد ملخصها فيما يلي : كانت الكعبة مبنية برضم يابس بدر ، وكان بابها بالارض ، ولم يكن لها سقف ، وكانت الكسور عليها ركاما بعضها فوق تدلى على الجدر من خارج وتربط من أعلى الجدر من داخلها ، وقد اجمرت

---

(٢١) الازرقي ، اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ، الجزء الاول ، صفحات ٣١ـ ٣٢ ـ ٣٦ ـ ٣٧ .

(٢٢) الازرقي ، اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ، الجزء الاول ، صفحات ٣١ ـ ٥٧ .

(٢٣) الازرقي ، اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ، الجزء الاول ، صفحة ٥٧ وما بعدها ، ابن الاثير ، الكامل في التأريخ ، الجزء الثاني ،صفحة ٢٧ ، الفاسي، شفاء الغرام ، صفحة ٩٢ ، المسعودي ، مروج الذهب ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٣٢ .

(٢٤) المسعودي ، مروج الذهب ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٧٨ ، الفاسي ، شفاء الغرام ، الجزء الاول ، صفحة ٩٤ .

(٢٥) الفاسي ، شفاء الغرام ، الجزء الاول ، صفحات ٩٦ ـ ٩٧ .

(٢٦) الازرقي ، اخبار مكة ، وما جاء فيها من الاثار ، الجزء الاول ، الصفحات ١٥٧ ـ ١٧٤ .

امراة من قريش الكعبة ، فطارت من مجمرتها شرارة فأحرقت كسوتها وتوهنت جدرانها من كل جانب وتصدعت ، وكانت تأتي مكة سيول عظيمة ، فجاء سيل عظيم والكعبة على ذلك الحال ، فدخل الكعبة وصدع جدرانها ، ففزعت قريش من ذلك فزعا شديدا ، وهابوا هدمها وخشوا ان يمسوها ، وبينما هم يتشاورون في أمر هدمها أقبلت سفينة للروم حتى اذا كانت بالشعيبة(٢٧) ، وهي يومئذ ساحل مكة قبل ميناء جدة فأنكسرت ، فسمعت بها قريش فركبوا اليها واشتروا خشبها ، واذنوا لاهلها ان يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاعهم على ان لا يشعروهم ، وكان في السفينة نجار رومي يسمى باقوم قدموا بهمكة مع من قدم من أصحابه ، فجمعوا الحجارة من الضواحي ، وقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الحجارة معهم قبل ان يبلغ بالرسالة ، ولما اجتمع لهم ما يريدون من الحجارة والخشب هدموا الكعبة حتى بلغوا الاساس الاول الذي رفع عليه ابراهيم واسماعيل (عليهما السلام) القواعد من البيت وكان ارتفاعها قبل ذلك تسعة أذرع فزادت قريش في ارتفاعها في السماء تسع اذرع اخر وبنوها من اعلاها الى اسفلها بمدماك من حجارة ومدماك من خشب ، وكان الخشب خمسة عشر مدماكاً ، والحجارة ستة عشر مدماكا ، وجعلوا ميزابها يسكب في الحجر ، وجعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي يصعد منها الى ظهرها ، وبنوا سقفها مسطحا وجعلوا منه ست دعائم في صفين في كل صف ثلاثة دعائم ، وزوقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها ، وجعلوا في دعائمها صور الانبياء ، وصور الشجر وصور الملائكة فكان فيها صورة ابراهيم وصورة عيسى عليهما السلام وصورة السيدة العذراء .

بناء على ما تقدم من روايات ، في وسعنا ان نستخلص رأيا من مجموعها

---

(٢٧) الشعيبة تقع جنوب مدينة جدة الحالية ع(الساحل الشرقي للبحر الاحمر وهي قريبة من الرأس الاسود ، وموقعها معروف حتى اليوم .

كما نوضحه في ادناه : ان الذي قام ببناء وتجديد الكعبة بعد بناء ابراهيم وولده اسماعيل (عليهما السلام) أقوام من العرب ، ولـم تشر المراجـع والمصادر الى اشتراك غيرهم من الاجانب في البناء ، وعند تصدعها آخر مرة نتيجة تعرضها للحريق والسيل معا ، صممت قريش ، وهي قبيلة عربية ، على بنائها وكان الذي يؤخرهم عن البناء هو عدم توفر الخشب في مكة آنذاك ، وعندما سمعوا بالسفينة التي تحطمت على الساحل على مقربة من جدة ، اسرعوا لشراء حطام تلك السفينة من اصحابها دون ان يعرفوا ان من ركابهـا بنائين او نجارين • وقد سمح القرشيون لركاب السفينة الدخول الى مكة لبيع مـا يحملون من أمتعة بعد ان تحطمت سفينتهم • وكان من ضمن الذين سـمح لهم بالدخول الرجل المدعو « باقوم » الذي ذكر الازرقي انـه نجار • وفي رأينا ان القرشيين اشركوه معهم في نقل الحجارةوالبناء كعامل أجير لا غير(٢٨) •

ولابد لنا من الاشارة هنا بأن الكعبة المشرفة والمسجد الحرام بمكـة قد حظيا بأهتمام الخلفاء والحكام والولاة والقادة المسلمين منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، الذي تنسب له المراجع التأريخية اجراء أول زيادة على المسجد الحرام وتوالت بعده الزيادات فيه على يـد الخليفـة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في عام ٢٦ للهجرة ، وزيادة عبدالله بـن الزبير في عام ٦٤ هـ • وعمارة الخليفة عبدالملك بن مروان ، وزيادة الخليفة الوليد بن عبدالملك ، وزيادة الخليفة ابو جعفر المنصور ، وزيادة الخليفـة محمد المهدي الاولى والثانية ، وعمارة الخليفة المعتمد على اللـه العباسي ، وزيادة الخليفة المقتدر بالله ، وعمارة المماليك والعثمانيين ، وعمارة السلطان قايتباي ، وعمارة السلطان سليمان وعمارة السلطان سليم وعمارة السـلطان

---

(٢٨) انظر العددالرابع لسنة ١٩٧٣ من مجلة « الاقلام » التي تصدرهـا وزارة الاعلام العراقية ، بحث للدكتور طاهر مظفر العميد بعنوان « الفن العربي الاسلامي بين الاصالة والاقتباس » •

مراد خان هذا وقد قامت المملكة العربية السعودية بأجراء العمارة الحديثة وتوسعة المسجد الحرام ، وقد اشرفت الاعمال فيه على الانتهاء [٢٩] .

رأينا مما سبق ، وبعد ان تأكد لنا من النصوص التاريخية والآثرية ، بأنه كان للعرب معرفة في العمارة وتخطيط المدن ، قبل الاسلام ، وانهم خلفوا العديد من المباني والمدن حفظ التأريخ لنا بعض اخبارها ، كما لا زالت بعض نماذج منها قائمة في الجزيرة العربية وفي العراق والشام . وبهذا فأن ما كتبه كل من السيدة جروترودبل والاب لامانس وريتشموند وكريزويل بعيد عن الواقع وعن مستلزمات البحث الاثري والتأريخي القويم، ويكون بالتالي ضربا من الحدس والتخمين .

وان بحثنا في تراث العرب المعماري والخططي في العصر الاسلامي ، فاننا نلاحظ استمرار مؤلفات هؤلاء العلماء الغربيين وغيرهم في الحط من حجم مساهمة المسلمين في هذا التراث ، وفي رأينا ، أن اغلب بحوث هؤلاء المستشرقين يغلب عليها طابع التحيز لغير العرب والمسلمين وانكار فضل العرب في المساهمة بأشادة صرح عمائرهم وتخطيط مدنهم ، وانها كانت تهدف الى تكوين فكرة منظمة تتسرب الى جميع العاملين في تاريخ الحضارة الانسانية ، ويتلقفها طلاب الدراسات الاثرية ، تستهدف سلب العرب في العصر السابق الى الاسلام من الاسهام في العمارة والبناء ، وانهم لا يعرفون هذا الضرب من الفن ، واستمرار جهلهم في هذا المجال في العصر الاسلامي ، وعلى هذا الاساس ، وحسب هذه النظرية فأن كل ما بناه العرب من عمارة وما خططوه من مدن اسلامية استعادوا على تنفيذها بغيرهم من مهندسين وفنانين ومزوقين أجانب .

---

(٢٩) مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد ، العدد ١٤ لسنة ١٩٧١ البحث للدكتور طاهر مظفر العميد بعنوان « التوسعات القديمة والحديثة في عمارة المسجد الحرام » صفحات ٥٠٨ ـ ٥٤٩ .

المقريزي ، فقد ذكر المقريزي ان « ثلاثة اخوة قدموا من الرها [٣٣] بنائين بنوا باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح »[٣٤] وعندما ترجم كريزويل هذا النص الى اللغة الانكليزية ليستخدمه في كتابه آضاف من عنده كلمة مسيحيين فاصبح النص لديه « ثلاثة إخوة مسيحيين ... »[٣٥] .

ومثل آخر لتحيز المستشرقين هو ما ادعاه الآب منريك Manrique من آباء الطائفة الاغسطينية ان باني ومخطط الاثر الاسلامي الضخم والمعروف بتاج محل[٣٦] ، هو المهندس جيروميو فيرونيو Geromino Veroneo ، غير انه ليس هناك من الاسانيد ما يعزز هذا الرأي سواء في سجل الحوادث

---

(٣٣) الرها ـ قال عنها ياقوت في معجمه، الجزء الثاني، صفحة ٨٧٦ « بأنها مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام ويقول بأنها سميت بالرها نسبة الى الذي استحدثها وهو الرها بن البلندي . وقيل الرها بالرومية « آذاسا » بنت في السنة السادسة من موت الاسكندر ـ بناها الملك سلوقس . وتسمى الان « اورفا » وهو اسم تركي .

(٣٤) دخل جوهر قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الفسطاط في ١٧ شعبان عام ٣٥٨هـ . وفي مساء هذا اليوم اختط جوهر اساس اسوار القاهرة وكانت في تلك الاسوار ثمانية ابواب منها باب النصر وباب الفتوح في الجهة الشمالية وباب زويلة في الجنوب . وقد مرت اسوار القاهرة هذه في ثلاث مراحل ـ الاولى التي شيدها جوهر والثانية حيث شيدها الوزير بدر الجمالي في عام ٤٨٠ هـ ـ ١٠٨٧ م . اما الثالثة فقد كانت على يد صلاح الدين الايوبي حيث انتدب في عام ٥٦٩ هـ ـ ١١٧٦م بهاء الدين قرقوش الاسدي لعمل السور فبناه بالحجارة كما هو عليه اليوم .

(٣٥) Creswell, Muslim Architecture of Egypt, Vol. 1. P. 162.

(٣٦) تاج محل ، وهو ضريح ، بناه في اكرا الملك الهندي المغولي المسلم «شاه جهان » ليضم رفات وزجته « ارجمند بانوبيكم » وكلمة تاج محل محرفة عن الاسم الذي كانت تحمله هذه الاميرة وهو « ممتاز محل » وهي ابنة آصف خان وقد تزوج منها شاه جهان سنة ١٦١٢م وعمرها تسعة عشر عاما وولدت منه اربعة عشر طفلا ثم توفيت عام ١٦٣١ على اثر الوضع فدفنت مؤقتا في بين آباد وحيث اقيم هذا الاثر نقل جثمانها اليه .

المحليـة او فيما دونه كـل من الرحالـة تافرنييه Tavernier وبورنيـه Bornier وتيفنـو Thevenot في الرحلات التي صنفوها(٣٧) .

هذه أمثلة قليلة وواضحة ، من أمثلة كثيرة احتوتها مؤلفات وبحـوث المستشرقين تؤكد تحيز اولئك العلماء(٣٨) .

والذي نراه ان الذي شجع اولئك المستشرقين على القول بأن العرب ، سواء في العصر الاسلامي او العصر الذي سبقه لم يكونوا ذوي دراية بفـن العمارة وتخطيط المدن ، لم يطلعوا على فنون الهندسة والبناء ، هو انفراد اولئك المستشرقين في خلال القرنين التاسـع عشر والعشرين بالاهتمام في دراسـة الآثار والمخلفات والمنشآت العربية والاسلامية ، اذ المعروف أن جملة مـن الرحالة والباحثين الغربيين بدؤا يومئذ زيارة المواقع الاسلامية أمثال ماكس فان برشم Max V. Berchem وهرتسفيلد Herzfeld والسيدة بل Bell وسارة Sarre وكريزويل Creswell وموزيل Musil وماسينيون Massignon . ونتيجة لتلك الزيارات والدراسات صنفوا مؤلفاتهم وكتبوا بحوثهم ، ثم ان جهل الكثيرين منهم بفنون اللغة العربية وبيانها وعـدم استطاعتهـم فهـم النصوص اللغويـة والدينية ، ادى بهم الى الوقوع في الاخطاء .

---

(٣٧) دائرة المعارف الاسلامية ،مادة « تاج محل » الجزء الرابع ، صفحة ٤٥٢ .

(٣٨) انظر مؤلفات وابحاث المستشرقين التالية للتعرف على تحيز اصحابها :

Bell - Ukhaider, PP. 145 - 147.

Creswell - Early Muslim Architecture, Vol. 1. P. 6.

Gotheil - The Origin and the history of the Minaret, Vol. 30, P. 133.

والذي شجع هؤلاء العلماء على انكار فضل العرب ، هو ماذكره ابن خلدون في مقدمته من ان « العرب ايضا اعرق في البدو وابعد عن الضائع » وان « المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول »(٣٩) .

والراجح أن ابن خلدون كان يقصد بلفظة « العرب » البدو ، ولقد أخذ المستشرقون ظاهر هذه اللفظة ليثبتوا ان العرب كانوا ابعد الناس عن البناء والصناعة ، من غير ان ينتبهوا الى الاستعمال الخاص لها في تأريخ ابن خلدون(٤٠) . وسوف نعود الى مناقشة آراء ابن خلدون هذه في الصفحات التالية .

والظاهر ان هذه الاسباب وتلك التي اشرت اليها ، ساعدت بل شجعت بعض الباحثين والمستشرقين ان يؤكدوا بان الاقاليم العربية في الجاهلية والاسلام كانت تفتقر الى فن البناء والعمارة وتخطيط المدن .

واذ اعدنا الى مناقشة ابن خلدون فيما كتبه في مقدمته حيث يقول في الفصل الذي عقده « في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل » ويعلل سبب ذلك بقوله : « والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الضائع كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها وله ـ والله أعلم ـ وجه آخر وهو أمس به ، وذلك لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في المكان وطيب المياه والمزارع والمراعي فأنه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر ورواءته من حيث العمران الطبيعي ، والعرب بمعزل عن هذا وانما يراعون مراعي إبلهم خاصة ولا يبالون بالماء طاب اوخبث ، ولاقل اوكثر ، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت

---

(٣٩) مقدمة ابن خلدون ، المجلد الاول ، الفصل الثامن ، صفحة ٦٤٥ .

(٤٠) ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، الصفحات ١٥١ـ١٦٨ .

والاهوية بأثقالهم في الارض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد . فأما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها . والظعن كفيل لهم بطيبها لان الرياح انما تنبت مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات . وانظر لما إختطفوا الكوفة والبصرة والقيروان ، كيف لم يراعوا في إختطاطها الا مراعي ابلهم ، وما يقرب من القفر ومسالك الظعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن »[٤١] .

وقبل ان نناقش رأي ابن خلدون الذي اوردناه آنفا ، نحب ان نشير الى ان بعض الباحثين يعتبر الفصول التي عقدها ابن خلدون في مقدمته انما هي « تأملات فلسفية اجتماعية » ولا تعتبر حجة تأريخية[٤٢] . والعرب الذين قصدهم هم فئة العرب « البدو » في مراحل التأريخ المختلفة . ويؤكد ذلك « البارون دوسلان » الذي ترجم ابن خلدون في سنة ١٨٦٢ ، ويقرر في هذه الترجمة ان ابن خلدون استخدم « كلمة العرب بمعنى البدو »[٤٣] .

ودراسة النصوص التي اوردها ابن خلدون في حديثه عن المباني التي كان العرب يشيدونها ، والمدن التي يختطونها ، تدعونا ان نؤكد ان ابن خلدون لم يكن منصفاً وعادلاً في حكمه على العرب ومبانيهم ، واذا لاحظنا النص الذي سبقت الاشارة اليه في رواية ابن خلدون نرى أنه يقول « وانظر لما إختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في إختطاطها الا مراعي إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن » .

واذا أمعنا النظر في النصوص التأريخية التي سجلت بناء هذه المدن الثلاث ، البصرة والكوفة والقيروان ، ندرك ان الذين إختطوها ونفذو بناءها كانوا من الصحابة المسلمين من أهل الحجاز واليمن وغيرهم بالنسبة لمدينتي

---

(٤١) مقدمة ابن خلدون ، الجزء الاول ، صفحات ٦٤٦ ـ ٦٤٧ .

(٤٢) احمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، صفحة ١٠

(٤٣) انظر الحاشية رقم ٣٥٩ في صفحة ٤١١ من المجلد الثاني المقدمة ابن خلدون تعليق الدكتور علي عبدالواحد وافي .

البصرة والكوفة ، ومن التابعين من أهالي الحجاز واليمن وعرب شمالي افريقيا ، والمعروف عن اولئك وهؤلاء انهم من سكنة المدن وانهم عرب أقحاح ولم يكونوا بدواً البته ولا أعراباً .

وزيادة عن ذلك ، فان العرب والمسلمين حينما إختطوا تلك المدن ، فانهم لم يختطوها إعتباطاً او كيفما إتفق ، وأنما كانوا يتخيرون مواضع مدنهم ، ويتفحصون أمكنتها تفحصاً طوبوغرافياً لذلك وضعوا شروطا وقواعد لبناء المدن وتخطيطها نجملها فيما يأتي :

اولا ـ عنى العرب ببناء المدن في الفتح وفي اثناء تأسيس دولتهم لاتخاذها معسكرات وحصونا ، ولذلك بنوها على طرف البادية قريبة من الماء كالكوفة والبصرة والفسطاط ، لا يفصل بينهم بحرا او ماء وذلك كي يتمكنوا من ان يحموا ظهورهم بالصحراء ويتخذوا منها خطا لرجعتهم عند اشتباكهم مع الاعداء ، لذلك لم يعنوا بأحاطتها بالاسوار المنيعة وببناء القلاع الحصينة ، ولما توغل العرب في البلاد المجاورة لهم واستقروا بها عنوا بوجه خاص عند تخطيط المدن بأحاطتها بخنادق وتسويرها بالاسوار المتعددة وتحصينها بالابراج الكثيرة ، ويظهر ذلك واضحا في تحصينات بغداد ، أما في بناء سامراء فلم يعن العباسيون بالاسوار كثيرا وذلك لانهم أمنو شر اعدائهم بعد ان مضى على تأسيس دولتهم نحو قرن من الزمن .

ثانيا ـ وكانوا يعنون ايضا بتنظيم الاسواق وترتيبها داخل المدن وتصنيفها حسب ما يباع بها من السلع كما كانوا يعنون بأنشاء البرك والمنتزهات وحدائق الحيوانات وحلبات السباق .

ثالثا ـ كان العرب يحرصون في الوقت نفسه ان يكون المحل المختار لبناء

المدن صحيا خاليا من الحشرات غير موبوء ولا وخم الهواء وان تكون مناظره مما ترتاح له النفس[٤٤] .

وخلاصة ما نريد ان نشير اليه هو ان في قول ابن خلدون بعداً عن الحقيقة واغفالاً للنصوص التأريخية الموثوقة بها التي وردت في المراجع العربية ، ويبدو لنا ان العلامة ابن خلدون لم يطلع عليها ، او لم تتح له الفرصة في التعرف عليها ، والا لما كتب عن العرب في صدر الاسلام « قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن »[٤٥] ان في قوله هذا مخالفة تامة وصريحة لما سنورده من الروايات التأريخية التي تشير ان العرب المسلمين عند بناء مدينتي البصرة والكوفة تحولوا من موضع الى آخر ، بأرشاد الخليفة عمر بن الخطاب بحثا عن موقع افضل .

اختيار موضع البصرة :

تتفق المراجع التأريخية العربية في أن البصرة هي اول مدينة مصرت في الاسلام خارج الجزيرة العربية ، ان هذه المراجع تختلف في تأريخ تمصيرها ، فالبلاذري يشير انها بنيت سنة ١٤ للهجرة[٤٦] ، وكذلك الطبري[٤٧] . اما المسعودي فيذكر انها مصرت سنة ١٤ للهجرة في رواية بينما يشير انها مصرت في ربيع عام ١٦ هـ في رواية اخرى[٤٨] ، وابو الفدا يشير انها مصرت سنة ١٥[٤٩] ، ويميل معظم الباحثين المحدثين بأنها مصرت في عام ١٤ هجرية[٥٠] .

---

(٤٤) ناجي معروف ، عروبة المدن الاسلامية ، صفحات ٢٤ـ٢٩ .
(٤٥) مقدمة ابن خلدون ، الجزء الاول صفحة ٦٣٩ .
(٤٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٣٤٦ .
(٤٧) الطبري ، الجزء الثالث ، صفحة ٥٩٠ .
(٤٨) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثاني ، صفحة ٢١١ .
(٤٩) ابو الفداء المختصر في اخبار البشر ، الجزء الاول صفحة ١٥٩ .
(٥٠) للاستزادة من التفاصيل يراجع بحثنا الموسوم « نشأة مدينة البصرة » مجلة كلية الاداب ، جامعة بغداد ، العدد ٢٢ شباط ١٩٧٨ ، صفحات ٢٤١ـ٢٦٨ .

ولقد كان الباعث الرئيسي الذي دفع الخليفه عمر بن الخطاب ، أن يأمر بتأسيسها هو الباعث العسكري ، نظرا للظروف العسكرية التي واكبت الفتوحات العربية الاسلامية في العراق ، ورغبة الخليفة في تركيز القوة العسكرية في جنوبي العراق لكي يتخذ منها المجاهدون العرب قاعدة لاسناد وجودهم في هذه المنطقة ، ثم الانطلاق منها الى المناطق الشرقية حيث توجد القوات الفارسية التي بدأ العرب المسلمون في مناهضتها ، وكسر شوكتها في مناطق متعددة من العراق تمهيدا لتفتيت قوتها وتصفية وجودها ، وتمكين القوات العربية الاسلامية ان تتخذ لها مواقع في هذا القطر تمهيدا لتحريره من السيطرة الفارسية • ونشر رسالة الاسلام التي حملها اولئك المجاهدون •

ومن المؤكد ان الخليفة عمر بن الخطاب كان يدرك كل الادراك اهمية موضع البصرة العسكري في امداد الجيش الفارسي بالاسلحة والمؤن والمقاتلين والحاجات الضرورية الاخرى الموجودة في المناطق الوسطى من العراق ، ويتبين هذا من روايتين الاولى رواها الطبري : قال عمر لعتبة بن غزوان[٥١] ، « قد فتح الله جل وعز على اخوانكم الحيرة وما حولها وقتل عظيم من عظمائها ، ولست آمن ان يمدهم اخوانهم من اهل الفرس ، فأني اريد ان اوجهك الى ارض الهند لتمنع ارض تلك الحيرة من امداد اخوانهم على اخوانكم وتقاتلهم ، لعل الله يفتح عليكم »[٥٢] • والرواية الثانية رواها ياقوت الحموي وهي قريبة المعنى من الرواية الاولى قال كتب عمر لعتبة بن

---

(٥١) عتبة بن غزوان : هو جابر بن وهيب بن نسيب احد بني مازن بن منصور بن عكرمه بن حفصه حليف بني نوفل بن عبدمناف ، كان ممن أسلم في مكة المكرمة ، ومن المهاجرين الاوائل ، وهو احد قادة فتح العراق وباني مدينة البصرة ، توفي عام ١٦ للهجرة وهو راجع من المدينة المنورة الى البصرة • (الزركلي ، الاعلام ، الجزء الثالث صفحة ٣٦٠ ، ابن عبدالبر ، الاستيعاب، الجزء الثالث ، صفحة ١٠٢٦) •

(٥٢) الطبري ، الجزء الثالث صفحات ٢٩٠ ـ ٢٩١ •

غزوان : « ان الحيرة قد فتحت فأت انت ناحية البصرة واشغل من هناك من أهل فارس والاهواز وميسان عن امداد اخوانهم »(٥٣) .

لذلك رغب الخليفة في اشغال القوات الفارسية المتمركزة عند جنوب العراق عن مساعدة بقايا القوات الفارسية التي انهكتها معارك القادسية والحيرة .

ومن المفيد ان نوضح هنا ، بان الخليفة عمر بن الخطاب ، كان يواكب حركة تمصير المدن مواكبته للحركات العسكرية الجارية في العراق والشام ومصر ، وانه كما كان يمد قادة الفتوحات بالاوامر والتوجيهات ، فأنه كان يحرص ايضا على مدادهم بالمشورة في أمر تمصير المدن ، وكان يستشير بعض الصحابة ممن يعرفون تلك الاقاليم وخبروا مواضعها ، فأن لم يلق احدا على علم بموضع ما ، فانه كان يكتب الى قادته يطلب منهم وصف الموضع له ، وعلى ضوء ما يرده من وصف ، كان يحدد رأيه في الموافقة او عدمها ، وكان الخليفة عمر قد ابلغ قادة الفتح بان يمصروا المدن في طرف البادية وان لا يفصل بينه وبينها نهر او ماء ، وقد التزم الخليفة بهذا النهج كما الزم قادته بتنفيذه ، وما سنورده من نصوص تأريخية يوضح هذا النهج :

كتب ياقوت الحموي : « ان عتبة كتب الى عمر يستأذنه في تمصير البصرة وقال : لابد للمسلمين من منزل اذا اشتى شتوا فيه واذا رجعوا من غزوهم لجأوا اليه فكتب اليه عمر ان ارتد لهم منزلاً »(٥٤) .

وروى الطبري في حوادث سنة ١٤ هـ فقال : « بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان ، فقال له إنطلق انت ومن معك ، حتى اذ كنتم في اقصى ارض العرب وادنى ارض العجم فأقيموا »(٥٥) .

---

(٥٣) ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الاول صفحة ٤٣١ .

(٥٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الاول ، صفحة ٤٣٣ .

(٥٥) الطبري ، الجزء الثالث ، صفحة ٥٩١ .

ويروي الطبري رواية اخرى فيقول : « قدم عتبة بن غزوان في ثلثمائة فلما رأى منبت القصب وسمع نقيق الضفادع قال : ان امير المؤمنين أمرني ان انزل اقصى البر من ارض العرب ، وادنى ارض الريف من ارض العجم »(٥٦)

والظاهر ان العرب قد عرفوا منطقة البصرة قبل تمصيرها اذ ان بعض الروايات التأريخية تشير الى تجريد حملات عسكرية اسلامية على منطقة الخريبة(٥٧) . قبل ان يشرع عتبة بن غزوان في تأسيسها . فقد روى الطبري ان قطبة بن قتادة كان يغير بناحية الخريبة ... فكتب الى عمر يعلمه مكانه وانه لو كان معه عدد يسير ظفر بمن قبله من العجم ونفاهم من بلادهم ، وكانت الاعاجم بتلك الناحية قد هابوه بعد وقعة خالد بنهر المرأة ، فكتب اليه عمر : انه آتاني كتابك انك تغير على من قبلك من الاعاجم وقد اصبت ووقفت ، أقم مكانك واحذر على من معك من اصحابك حتى يأتيك أمرى ، فوجه عمر شريح بن عامر احد بني سعد بن بكر الى البصرة ، فقال له : كن رداءً للمسلمين بهذه الجيزة ، فأقبل الى البصرة فترك بها قطبة ومضى الى الاهواز حتى انتهى الى دارس وفيها مسلحة للاعجام فقتلوه »(٥٨) .

والخريبة هي البلدة كان يسميها الفرس في السابق « وهشنا باذ

---

(٥٦) الطبري ، الجزء الثالث ، صفحة ٥٩٤ .

(٥٧) الخريبة : وهي كما ورد في معجم البلدان لياقوت ، الجزء الثاني ، صفحة ٣٦٢ ، تصغير خربة ، وسميت بذلك فيما ذكره الزجاجي لان المرزبان كان كان قد شيد عنده قصرا ثم خرب بعده ، وعندما نزل المسلمون منطقة البصرة واسسوا فيها مدينتهم كانت هناك تلك الخرائب فسموها الخريبة . وكان حمزة يقول ، كما ورد في نفس المصدر ، انه عندما بنيت البصرة اقيمت الى جانب مدينة عتيقة من مدن الفرس كانت تسمى « دهشتا باذ اردشير » فخربها المثنى بن حارثة الشيباني بشن الغارات عليها ، وحينما قدمت العرب البصرة سموها الخريبة .

(٥٨) الطبري ، الجزء الثالث ، صفحة ٥٩٣ .

أردشير » وتعني بالعربيـــة موطن فردوس اردشير[٥٩] . وكانـــت لهم فيها مسلحة مشحونة بالجند المقاتلين أثخن المســـلمون جراحها بتوالى الغارات عليها ، فأضعفوها وشـــلوا من مقدرتها الدفاعيـــة ، وتفيد بعض النصوص التأريخية ان خالداً مر بالخريبة سنة اثنى عشرة قادماً من اليمامة والبحرين في طريقه الى الحيرة ، وانه لم يرحل من منطقة البصرة حتى أتم فتح الخريبة[٦٠] .

وبعد ان استولى العرب المسلمون على مسلحة الخريبة إتخذوها قاعدة لهم للوثوب على مسالح الفرس الاخرى القريبة منهـــا بغية اضعاف قدرتها العسكرية الدفاعية[٦١] .

واذا اردنا تحديد الموضع الذي اختاره العرب المسلمون لاقامة مدينتهم الاولى ، فأن ما يتوفر من النصوص التأريخية لا يفيد في تحديد هذا الموضع على وجه الدقة . ومن المرجح ان الموضع الذي كانت تشغله مدينة البصرة ، التي وضع اسسها القائد عتبة بن غزوان يقع الى الشرق من مدينـــة الزبير الحالية ، والى الجنوب الغربي من مدينة البصرة الحالية مستندين في ذلك على نتائج التنقيبات الاثرية التي قامت بها مديرية الآثار العراقية وجامعة البصرة في مكان تلك البقعة حيث أظهرت تلك التنقيبات اسس مسجد البصرة ايـام زياد بن أبيه ٤٥ـ٥٥ هجرية ، ولقد زرت هذه المنطقة في عام ١٩٧٤ وشاهدت هذه الاسس وفحصت المواد البنائية التي استخدمت فيها .

روى بعض المؤرخين انه حينما غزا المسلمون تّوج ونوبندجان وطاسان

---

(٥٩) انستاس ماري الكرملي ، لغة العرب ، سنة ١٩٢٧ ، صفحات ٦١٠ ـ٦١١ .

(٦٠) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الاول صفحة ٤٣٠ ، ويضيف ياقوت أن خالدا خلف بها رجلا من بني عامر وانه قدم نهر المـــرأة ، وفتح القصر صلحا ومهما يكن من امر فان الواقدي ينكر ان خالد مر بالبصرة فيقول انه حين فرغ من أمر اليمامة والبحرين قدم المدينة ثم سار الى العراق ع(طريق فيد والثعلبية .

(٦١) انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الاول ، صفحة ٤٣٠ .

وفتحوها كتبوا الى الخليفة عمر يستأذنونه في بناء مكان لهم : « إنا وجدنا بطاسان مكاناً لا بأس به » فكتب اليهم : ان بيني وبينكم دجلة ، لا حاجة في شيء بيني وبينه دجلة أن تتخذوه مصر » ثم قدم عليه رجل من سدوس يقال له ثابت فقال : « يا امير المؤمنين : اني مررت بمكان دون دجلة فيه قصر وفيه مسلح للعجم يقال له الخريبة ويسمى ايضا البصيرة ، وبين دجله اربعة فراسخ ، له خليج بحري فيه الماء الى آجمة قصب ، فأعجب ذلك عمر »[٦٢].

وهكذا فان المكان المختار قد وافق الخليفة عمر بن الخطاب ، اذ اشار عتبة بعد ان تفحص موضع الخريبة فقال : ان امير المؤمنين امرني ان انزل اقصى البر من ارض العرب ، وادنى ارض الريف من ارض العجم »[٦٣] .

وعندما اطمأن القائد عتبة بن غزوان الى صلاح المنطقة المختارة وملائمتها للشروط التي يرغب فيها الخليفة عمر بن الخطاب ، كتب الى الخليفة يستأذنه في تمصير البصرة فقال : لابد للمسلمين من منزل اذا اشتى شتوا فيه واذا رجعوا من غزوهم لجاؤا اليه . فكتب اليه الخليفة : ارتد لهم منزلا قريبا من المراعي والماء واكتب اليّ بصفته ، فكتب الى عمر : انني وجدت ارضا كثيرة القضّة[٦٤] ، في طرف البر الى الريف ودونها منافع ماء وفيها قصباء ، ولما وصلت الرسالة الى عمر قال : هذه ارض بصرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب ، فكتب اليه أنزلها[٦٥] .

---

(٦٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الاول صفحة ٤٣٠ .

(٦٣) الطبري ، حوادث سنة ١٤ هجرية ، الجزء الثالث ، صفحة ٥٩٤ .

(٦٤) القضه : تعني الحجارة المجتمعة المتشققة ، وقيل : أرض قضة ذات حصى ، واما القضة (بالكسر والتخفيض) ففي كتاب العين : انها ارض منخفضة ترابها رمل . وقال الازهري : الارض التي ترابها رمل يقال لها قضة . واما القضة (بالتخفيض) فهو شجر من شجر الحمض . وقال ابو نصر الجوهري (بكسر القاف والتشديد) الحصى الصغار . والقضة ايضا ارض ذات حصى . [انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الاول ، صفحة ٤٣٢] .

(٦٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الاول صفحة ٤٣٢ .

مما تقدم يتوضح لنا بجلاء ان عتبة بن غزوان اختار موضع مدينة البصرة بناء على مواصفات خاصة الزمه بها الخليفة عمر بن الخطـــاب ، وان عتبة بن غزوان بعث وصف الموضع الى الخليفة مضمناً في رسالته ، توفر الشروط التي اشترطها الخليفة على قادته في توفير المياه للجند المجاهدين وتوفير المراعـــي لخيولهم ، وان ليس هناك من حواجز طبيعية ، او انهار تفصل اولئك الجند عن طرف الصحراء التي يلجأ اليها العرب اذا ما أفلح اعداؤهم من الساسانيين والروم في صدهم ومناجزتهم .

اختيار موضع الكوفة :

تتفق المراجع والمصادر العربية في ان الكوفة هي ثاني المدن التي أقامها العرب المسلمون خارج الجزيرة العربية(٦٦) . واذ كنا نعرف ـ كما ســـبق واشرنا ـ ان الباعث العسكري كان المحفز لبناء مدينة البصرة ، فأن الباعث نفسه يصح ان يقال بشأن تمصير مدينة الكوفة .

وان كان بناء مدينة البصرة يخدم رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في تركيز القوة العسكرية العربية الاسلامية في جنوب العراق لكي تكون قاعدة لتجمع القوات العسكرية ، ثم الانطلاق منها الى المناطق الشرقية حيث توجد القوات الفارسية التي قهر العرب المسلمون شوكتها في القادسية والمدائن والحيرة ، فأنحسرت عن هذه المواقع وبدأت تلملم شـــملها في شرقي دجلة لتثأر مـــن المسلمين ، فان اتخاذ مركز عسكري اخر في وسط العراق يحقق هدف القوات الاسلامية الموجودة في هذه المنطقة لكي تجمع فصائلها في مكان أشبه بمعسكر ترحيل كما يطلق العسكريون عليه اليوم فتجعل من نفسها قوة ضاربة تنطلق من المركز لتقاتل الاعداء ثم تؤوب اليه عندما تحقق الغرض من انطلاقها .

---

(٦٦) مصرت الكوفة عام (١٧) للهجرة كما يشير البلاذري في فتوح البلدان صفحة ٣٣٨ . وهنـــاك من المؤرخين من يرى انها مصرت عام (١٥) للهجرة كما ذهب المسعودي في مروج الذهب صفحات ٢١١ ـ ٢١٢ .

لم يكن هذا التصور بعيدا عن الخليفة عمر بن الخطاب ، ولكي يحقق هذا التصور في المجال العملي امتداد رقعة المعركة كما حققه في البصرة ، كتب الى قائده سعد بن ابي وقاص يأمره ان يتخذ للجيش الاسلامي المحارب مركزا يقيمون فيه وقت السلم ، وينطلقون منه حين تآذن الحرب ، كما قال في رسالته الى قائده سعد : « ان يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيرواناً »[٦٧] .

وكان القائد سعد ابن ابي وقاص ، يرى بعد انتصاره على الفرس في في المدائن واستيلائه عنوة على إسباينر وكرد بنداد[٦٨] ، ان ينزل بجنده في مدينة المدائن الكبيرة[٦٩] . التي تتوافر فيها وسائل المتعة ، فضلا عن كونها مدينة متكاملة المرافق العمرانية والاجتماعية ، وانها لا تحتاج الى جهد من الجند الفاتحين لتكون محل سكناهم ، فأمر جنده نزول المدائن .

وقد درج قادة فتح العراق والشام ومصر ان يشعروا الخليفة عمر بكل ما يحدث من معارك وفتوحات واستيطان ، وكان الخليفة عمر قد ألزم قادة جيوشه بأن لايتخذوا اي قرار مهم الا بعد استشارته ، وانطلاقاً من هدا المبدأ كتب القائد سعد بن ابي وقاص بأخبار الفتح والاستيلاء على المدائن الى الخليفة معلماً إياه نزوله مع الجند المجاهدين في المدينة واتخاذها محلا لسكناهم .

واذا كان القائد سعد يميل الى سكنى المدائن ، فأنه كان يقدر هذا الميل بنظرة القائد الذي يحرص على توفير الوقت للجند ، ومنحهم الوقت الكافي للراحة ، بعد الانجاز الكبير الذي حققوه في جميع المعارك التي خاضوها مع الفرس ، فأن نظرة الخليفة في عاصمته بالمدينة المنورة كانت ابعد في تقديرها ، واشمل في قرارها ، اذ كما هو معروف عن الخليفة عمر انه كان شديد الحرص

---

(٦٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

(٦٨) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

(٦٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

في ان يترك للقادة العسكريين اتخاذ القرارات الآنية التي تتعلق بالمعارك ، وفق ما تتطلبه ظروف المعركة وزماتها ، أما تلك القرارات التي يتوقف عليها نضال العرب المسلمين وجهادهم ، وفي الدعوة الى الاسلام ونشر مبادئه ، وفي الحفاظ على مقومات الامة التي تصون لها كيانها ، وفي الالتزام الكامل بالابقاء على ارواح المجاهدين بعيدا عن خطر الاعداء جسدياً وفكرياً ، فأن البت فيها مرهون الى الخليفة .

ومن هذا المنطلق ، أقبل رسول الخليفة الى القائد سعد يبدي عدم موافقة الخليفة عمر في سكنى المدائن[٧٠] .ومن المؤكد ان الخليفة كان يدرك كل الادراك أن الجند المسلمين كانوا آنذاك جنوداً محاربين تحت السلاح ، وانهم سوف يبقون كذلك حتى تصل مبادىء الاسلام الى اوسع رقعة ممكنة ، وانه من الافضل ، الابقاء عليهم في آماكن عسكرية بحته لكي يشعروا دائماً ان المهمة التي قدموا لاجلها من الجزيرة العربية لم تنته بعد ، لذلك حظر عليهم الاشتغال بالزراعة لئلا يتقاعسوا عن الحرب ، ولئلا يميلوا الى الدعة والاسترخاء فيفقدوا صفتهم العسكرية وحماسهم الديني ، ومن اجل ذلك اعلن الخليفة فمر لجيوشه ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم جارٍ .

وسبب آخر دفع الخليفة الى تحويل المسلمين عن المدائن ، هو وخومةجو المدائن[٧١] ، الذي لا يلائم ما إعتاد عليه العرب في الحجاز من جفاف ونقاء الذي يوفره مناخ المناطق الصحراوية . وقد لاحظ الخليفة تغير ألوان وسحن الوافدين الى المدينة المنورة من المسلمين الذين نزلوا المدائن ، فاستفسر منهم عن سبب ما أصابهم من تغيير في صحتهم وألوانهم ، كما انه ارسل الى قائده سعد يستوضحه السبب في ذلك فكتب اليه قائده يقول : « إن العرب

---

(٧٠) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

(٧١) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

خددّهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة .. »[٧٢] .

وهناك سبب ثالث شجع الخليفة في الايعاز لقائده بضرورة ترك المدائن ، هو ان الخليفة لم يكن يأمن جانب الفرس من سكنى هذه المدينة ، إذ من المحتمل ان يتجمعوا من جديد ، وينقضوا على المسلمين في المدائن التي يعرفون مواطن القوة والضعف في قدراتها الدفاعية .

واستجاب القائد سعد الى رغبة الخليفة فأتجه صوب الغرب مسترشداً بتوجيه الخليفة الذي حدد له الاتجاه في رسالة بعث بها اليه فقال « أن تنزلهم منزلاً غريباً »[٧٣] . حتى وصل الانبار[٧٤] ، وبنى فيها مسجداً[٧٥] .

والظاهر ان الانبار لم تعجب القائد سعد فتحول عنها ، وتشير النصوص التأريخية ان سبب تحوله عنها هو كثرة الذباب[٧٦] . ويرى باحث عراقي ان

---

(٧٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

(٧٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٧ .

(٧٤) الانبار ، اطلال واسعة تقع ع(الضفة اليسر) او الشرقية من نهر الفرات ، فوق مدينة الفلوجة بالعراق . ويقال أن الذي اختط هذه المدينة في الاصل هو الملك الساساني سابور الثاني (٣١٠ ـ ٣٧٩ م) ، ومن المرجح ان هذه الرواية لم يقصد بها تخطيط مدينة جديدة وانما قد تشير الى اعادة بناء مدينة كانت قائمة في الموضع وتحصينها ، وبقيت الانبار يقطنها اناس مختلفون حتى احتوى سكانها العنصر العربي اثناء الفتح العربي الاسلامي . وجاء ذكر فتح الانبار ضمن الفتوحات التي تمت في العراق على يد الخليفة عمر بن الخطاب . وبعد مضي فترة من قيام الدولة العباسية ، انتقل ابو العباس السفاح مؤسس الدولة العباسية الى الانبار وبنى فيها مدينة اطلق عليها اسم الهاشمية في عام ١٣٤ هـ ، وتوفي فيها الخليفة ابو العباس عام ١٣٦ هـ ودفن فيها بقصره . ومر بها الرحالة ابن بطوطة في عام ٧٤٨ هجرية (١٣٤٧ م) . ويبدو ان الانبار بدأ خرابها بعد عام ٨٢٤ هجرية (١٤٢١ م) لكثرة ما اصابها من حروب فأنتقل فوج من اهلها الى الكاظمية ولا تزال محلتهم تعرف باسم محلة الانباريين .

(٧٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٢٨ .

هذا لم يكن السبب الحقيقي لترك سعد مدينة الانبار ، ويشير ان السبب حربى بحث ، إذ أن الانبار لا تصلح من الناحية الحربية لوجود عائق طبيعي هو الفرات وما يتسبب عنه وعن بحيرة الحبانية من فيضانات ومستنقعات ، ولبعدها عن العاصمة المدينة ، مما يؤخر ويعرقل إرسال المدد إذا ما تجدد القتال بينهم وبين الفرس في المستقبل(٧٧) .

وتحول القائد سعد عن الانبار ، واقبل نحو « كويفه بن عمرو » ، والظاهر انها لم تعجبه لان الماء محيط بها فتركها(٧٨) . ثم توجه نحو موقع الكوفة فأنتهى الى الظهر وكان يدعى « خد العذراء » ينبت الخزامي والاقحوان والشيح والقيصوم والشقائق فأختطفها(٧٩) .

ويشير البلاذري ان ابن بُقيلة أرشد سعداً على موضع الكوفة الحالي أذ قال له : « ادلك على ارض إرتفعت عن البق وانحدرت عن الفلاة »(٨٠) .

ان هذا الانتقال من مكان الى آخر يثبت من دون شك ان العرب كانوا يحرصون بأن يكون المحل المختار لبناء مدنهم صحياً خالياً من الحشرات غير موبوء ولا وخم الهواء ، وان تكون مناظره مما ترتاح له النفس ، وهذا ثابت ومؤيد بالنصوص التأريخية اوردها المؤرخون المسلمون مصنفاتهم ومؤلفاتهم .

ومن الاهمية بمكان ان نعرف موضع الكوفة قبل بناء المسلمين معسكرهم فيه ، ونرى هل ان الموضع كان معروفاً ومسكوناً قبل ان يختاره القائد سعد لانشاء مدينة عليه ام انه غير معروف ولا مسكون ذلك التاريخ .

---

(٧٧) الدكتور كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة ٢٥ .

(٧٨) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٧ .

(٧٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٧ .

(٨٠) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٦ الطبري ، الجزء الثالث صفحة ٩٥٨ .

واذا إستعنا ببعض الابحاث الحديثة ، فأنها تشير بأنه ليس في موضعها ما يثبت او يدل على انها كانت في يوم من الايام مستوطناً من المستوطنات الانسانية القديمة ، إذ لم يسبق ان عثر في التنقيبات او في ارضها على آثار او ابنية تعود الى عصور ما قبل التاريخ او بعده[٨١] .

وقبل تمصير الكوفة ، كان الموضع الذي اقيمت عليه المدينة جزء من الضفة اليمنى لنهر الفرات ، او ما كان يسمى بنهر العلقمي[٨٢] ، وهو اليوم على شاطىء شط الهندية القديم والى الشرق من مدينة النجف بنحو (١٦) كيلو متراً[٨٣] .

وارض الكوفة مرتفعة سهلة ، وصفها ابن الفقية فقال : « إن أرض الكوفة سفلت عن الشام وعملها ووباءها ، وارتفعت عن البصرة وحرها وعمقها ، وجاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها وهي مريئة مريعة »[٨٤] . لا تطالها مياه الفيضان ترتفع عن سطح البحر بنحو (٢٢) متراً ، بعيدة عن مناطق الاهوار والمستنقعات[٨٥] .

---

(٨١) الدكتور كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة ١١ ، ويضيف بأن المنقبين يعثرون بين الحين والاخر على آلات صوانية من الحجر كالفؤوس والمقاشط والسكاكين في بادية كربلاء قرب قصر الاخيضر يرتقي زمنها الى عصور ما قبل التأريخ .

(٨٢) قدامة بن جعفر ، الخراج ، صفحة ٢٣٤ .

(٨٣) يتفرع نهر الهندية بواسطة سدة الهندية الى فرعين الاول ويدعى نهر الهندية الذي يتفرع بدوره الى فرعين ، فرع الكوفة وتقع عليه مدينة الكوفة وابو صخير والثاني فرع الشامية ، أما الفرع الثاني لنهر الفرات فهو نهر الحلة الذي تقع عليه مدينة الحلة والهاشمية .
آ انظر جغرافية العراق الطبيعية ، للدكتور جاسم محمد الخلف ، صفحة ١٧٤] .

(٨٤) ابن الفقيه ، البلدان ، صفحة ١٦٤ .

(٨٥) الدكتور كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة ٣٢ .

وموضع الكوفة من الناحية الستراتيجية ، يوفر للمدينة المنشأة الحماية العسكرية الكافية ، إذ ان موقعها في طرف الصحراء العربية وعلى ضفاف أحد فروع نهر الفرات يشبع رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في ان لا يفصل بين المدن المقامة وبين مركز الدولة في المدينة حاجز طبيعي ، كما ان وقوع المدينة في مكان مرتفع يبعدها عن أخطار الفيضان ويسلم ارضها من تجمع المياه الآسنة التي تزيد في كثرة البعوض والحشرات والهوام .

هذا اضافة الى توفر المياه الجارية الكثيرة في المنطقة مما يجعل الارض صالحة للزراعة ، ويسهل على العرب الفاتحين استغلال الاراضي المحيطة بهم بكل يسر وسهولة .

تأسيس مدينة القيروان :

لاحظنا في بناء مدينتي البصرة والكوفة ان العديد من النصوص التأريخية تشير الى تحريات واستطلاعات قام بها القائدان عتبة بن غزوان وسعد بن أبي وقاص بتوجيه من الخليفة عمر(٨٦) . أما في تأسيس القيروان ، فأننا لا نلاحظ قيام عقبة بن نافع بمثل تلك التحريات الطوبوغرافية ، والصحية ، والاقتصادية ، كما نلاحظ غياب توجيهات الخليفة الاموي ، وان الامر قد ترك الى تصور القائد عقبة وما يراه من خطوات .

ولئن إفتقدت القيروان عند تأسيسها الى توجيهات الخلافة المركزية والى التحريات الصحية ، ولم تتوفر فيها مثل هذه التوجيهات والتحريات توفرها

---

(٨٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحات ٢٤٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٣٤١ ؛ اليعقوبي ، التاريخ الجزء الثاني ، صفحة ١٢٧ ، اليعقوبي ، البلدان ، صفحات ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ؛ الطبري ، الجزء الثالث ، صفحات ٥٩١ ـ ٥٩٣ ؛ الدينوري الاخبار الطوال ، صفحة ١٢٥ ، ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الاول صفحة ٤٣٢ .

في المدن الاسلامية السابقة لها ، فأن الجانب العسكري الامني ، والحفاظ على ارواح الجند والمجاهدين كانا اهم ما شغل بال القائد عقبة بن نافع .

وتتحدث النصوص التأريخية فتوضح ان عقبة أشار الى من معه من القادة والجند بضرورة اتخاذ مدينة بقوله « فأرى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للاسلام الى آخر الدهر »(٨٧) .

فأتفق رأيهم جميعا على بناء المدينة ، واقترحوا عليه ان يكون موضعها على مقربة من البحر : « نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط »(٨٨) . الا ان إقتراحهم هذا لم يوافق رأي القائد عقبة بن نافع ، فقد كان بعيد النظر ، حصيف الرأي ، يستشعر بالخطر المحدق قبل وقوعه ، ويحسب للعدو المتربص وراء البحر حسابه ، لذا لم يوافق على ما أشار عليه اصحابه من اتخاذ المدينة قريبا من البحر وانما اشار عليهم ان يقيموها على مسافة من البحر فقال : « اني أخاف ان يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر الا وقد علم به ، واذا كان بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون »(٨٩) .

ويحدد القائد عقبة بن نافع الاتجاه الذي يمكن للعرب المسلمين ان يتوجهوا اليه في إقامة مدينتهم فيقول لهم : « قربوها من السبخة فان دوابكم الأبل ، وهي التي تحمل اثقالكم فأذا فرغنا منها ، لم يكن لنا بد من الغزو

---

(٨٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، صفحة ١٩ ؛ كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ، صفحة ١١٢ .

(٨٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، صفحة ١٩ ؛ كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ، صفحة ١١٢ .

(٨٩) ابن عذاري ، البيان المغرب ، صفحة ١٩ ، كتاب الاستبصار في عجائب الابصار صفحة ١١٢ .

والجهاد حتى يفتح الله لنا منها الاول فالاول توقعون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها آمنة من عادية البربر والنصارى »[٩٠] .

وتؤكد النصوص التأريخية المتوفرة ان المكان الذي بنيت عليه مدينة القيروان قد إختاره عقبة بن نافع بنفسه ، وحاز موافقة اصحابه من القادة والجند . فقد روي ياقوت على لسان عقبة قوله : « وقد رأيت ان ابني ها هنا مدينة يسكنها المسلمون ، فأستصوبوا رأيه ، فجاؤوا موضع القيروان »[٩١] .

وقد اوضح عقبة السبب الذي حدا به الى اختيار موضع القيروان هذا دون غيره فقال : « لقد اخترت هذا الموضع لبعده من البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكها وهي في وسط البناء »[٩٢] .

واذا اردنا دراسة موضع مدينة القيروان الطوبوغرافي في عهد التأسيس ، فأننا لا نجد في المراجع التي تناولت بناء المدينة نصوصا تعيننا على مثل هذه الدراسة ، سوى بعض النصوص المقتضبة ، ويشير البكري الى المناطق التي كانت تحيط بالمدينة فيذكر ان القيروان تقع « في بساط من الارض مديد من الجنوب منها بحر تونس ، وفي الشرق بحر سوسه والمهدية وفي القبلة بحر اسفاقس وقابس وأقربها منها البحر الشرقي بينها وبينه مسيرة يوم وبينها وبين الجبل مسيرة يوم وبينها وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم وشرقها سبخة ملح عظيم طيب نظيف »[٩٣] .

ويبدو ان الاراضي المحيطة بموضع القيروان كانت تشمل على اراضي

---

(٩٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، صفحة ١٩ ـ ٢٠ ؛ كتاب الاستبصار في عجائب الابصار ، صفحات ١١٢ ـ ١١٣ .

(٩١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الرابع ، صفحة ٤٢١ .

(٩٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الرابع صفحة ٤٢١ .

(٩٣) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، صفحة ٢٤ .

طيبة كريمة ، وافضلها كما يشير البكري ، الجانب الغربي ، وهو المعروف بفحص الدّدارة (٩٤) .

أما طبيعة المكان الذي اقيمت عليه المدينة ، فكان يشتمل على غياض كثيرة لاترام من السباع والهوام والحيوانات تتشابك فيها الاشجار(٩٥) . وليس في المنطقة نهر جار او عين وفيرة المياه ، وانما كان مصدر الشرب لدى الناس فيها هو مياه الامطار التي تهطل في الشتاء فتجمع في برك كبيرة تدعى المواحل ، وكان هناك وادٍ في قبلة المدينة يجري فيه ماء مالح يستعمله الناس فيما يحتاجون اليه لاعمالهم دون الشرب(٩٦) .

مما تقدم ، يتوضح لنا استناداً الى النصوص التأريخية الكثيرة التي اوردناها في ثنايا البحث ، ان العرب والمسلمين الذين نفذوا بناء المدينتين الاسلاميتين البصرة والكوفة ، قد التزموا في البحث عن الموضع وفق المواصفات التي فرضها الخليفة عمر واشترط تنفيذها ، كما ان القائد عقبة بن نافع قد التزم في تحقيق الجانب الامني لمدينة القيروان .

---

(٩٤) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . صفحة ٢٤ .

(٩٥) ابن عبدالحكم ، فتوح مصر ، صفحة ١٩٦ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٦٩ ؛ الطبري ، الجزء الرابع ، صفحة ١٧٨ ؛ القزويني ، آثار البلاد واخبار العباد ، صفحة ٢٤٢ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الرابع ، صفحة ٤٢١ ؛ كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ، صفحة ١١٣ .

(٩٦) ابو الفدا ، تقويم البلدان ، صفحة ١٤٥ ، وللاستزادة عن تأسيس مدينة القيروان يراجع بحثنا في المجلد الاول ، العدد (٢١) بمجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد لعام ١٩٧٧ ، صفحات ٣٣٧ ـ ٣٥٢ .